بين الغرب والشرق

للدكتور إسماعيل أحمد أدهم

تتمة

كان ذلك منذ أشهر وكنت أحاضر جمهوراً من الأدباء بكلية الليسيه بالاسكندرية ، وكان موضوع المحاضرة « الحياة الانسانية بين قضاء وقدر الشرق ومذاهب الغرب فى حرية الارادة » . وقد جاء فى محاضرتى كلام جيد عن الفروق بين أهل الشرق وبين أهل الغرب ، لهذا رجعت وأنا أجول جولتى فى كلام مناظرى الفاضل إليها آخذ منها لرّدى على المناظر ما أراه ذا صلة وثيقة بالمسألة التى أثارها فى العلم والثقافة

قلت فى محاضرتى ما نصه :

(هنالك فرق أساسى فى منطق التفكير بين الشرقي والغربى ، وهذا الفرق ينحصر فى أن الشرقى يبدأ بحثه من الوحدة المتجلية حوله فينتهى للخالق ومنه للطبيعة . بعكس الغربى الذى يبدأ بحثه من التغاير الذى يكتنفه فينتهى للطبيعة ومنها للخالق)

هذا الفرق المشهود فى أن الشرقى يبدأ من عالم الغيب لينتهى للعالم المنظور ، بعكس الغربى الذى يبدأ من العالم المنظور لينتهى لعالم الغيب — كان سبباً لظهور اللاهوت عند الشرقيين والفلسفة عند الغربيين

وهذا التباين فى منزع التفكير ذهب بالعقل الشرقى إلى الاعتقاد بأن العالم حادث كما انتهى إلى أنه قديم عند الغربيين ، ذلك أن الشرقى بدأ بحثه من الخالق فانتهى كما انتهى متكلمة المسلمين إلى أن العالم حادث وأن الخالق مطلق التصرف فى الكون منفصل عنه ومدبر له ، وأنه السبب لكل ما يحدث والعلة الأولى والأخيرة لكل ما يكون وماسيكون ، بينما البحث عن التغاير المشهود فى الكون يدفع بالأخذ بأساليب الاستقراء والمشاهدة إلى جانب أسلوب الاستنتاج والنظر ، وهذا كله ينتهي بالانسان كما انتهى بمفكرى الغرب إلى أن لكل حادثة سبباً فى الكون ، وأن للعالم وحدته وانسجامه ، وأنه خاضع لنواميس وسنن ثابتة لا تتغير لا فى الزمان ولا فى المكان ، فإذا انتهى إلى الله قيده بهذه السنن والنواميس ، وتصبح بذلك إرادة الله مقيدة بنظام هذا الكون وأفعاله قائمة على عنصر اللزوم والاضطرار

والانسان من حيث هو كائن فى العالم المنظور ، فهو فى نظر الشرقى خاضع لإرادة عليا ، هى إرادة الخالق الحرة ، هو الذى يقضى فيكون ويقدّر فيحدث . وهذه فكرة القضاء والقدر عند الشرقيين ، فإذا قضى الله أمراً فلا مردّ لقضائه ، وإذا أراد شيئاً قال له كن فيكون . غير أن الإرادة الإلهية لا تتعلق بالأمر الذى قضى بوقوعه إلا إذا تعلقت به إرادة الانسان المخلوق الذى وهبه الخالق حرية الارادة ، فى أن تتعلق بالأشياء فكأن للانسان اختياراً ، غير أنه عند النظر مقيد بالعلم الإلهى الأزلى وبتعلق الارادة الالهية لترجح

أما فى نظر الغربى فالانسان وإن كان يتبع فى تصرفاته وسلوكه نواميس الحياة ويخضع لها ، فإن فى قدرة الانسان تغيير المقدّر له عن طريق معرفة النواميس المتحكمة فى وجوده والعمل على إيجاد الملاءمة بين حاجات الانسان فى الحياة ومطالبه فى الوجود ، وبين المقدّر له عن طريق تغييره بتكافأ وصالحه

وخلاصة القول أن فى الشرق استسلاما محضا للغيب ، وفى الغرب نضالا محضا مع قوى الغيب ، وبين منطق الغرب وروح الشرق تسير البشرية فى قافلة الحياة

هذا الكلام الذى لخصت فيه فى ختام محاضرتى كل ما قلته فى ذلك المساء ، أجده بليغاً فى الرد على مزاعم مناظرى الفاضل . وخشية أن يقف بعض الناس عند ظاهر هذا القول فلا ينزلون إلى أغواره الفصيّة ، أحب أن ألفت أنظارهم إلى أشياء .

١ — إن ما نعنيه باصطلاح الشرق والغرب لا يقوم على أساس من تقسيم العالم إلى شرق وغرب فى تقويم البلدان ، إنما ترجع التفرقة عندنا إلى ما نلمسه من طابع ذهنى للغرب ومنزع ثقافى للشرق ، على اعتبار أن هذا الطابع عام للغرب وذلك المنزع عام للشرق . غير أن هذا لا يمنع أن نجد مجتمعاً غربياً ينزع منزع الذهن الشرقي فى قلب أوروبا فى زمن من أزمنة التاريخ نتيجة لغلبة الطابع الشرقى لأسباب خارجة وطارئة على المحيط الاجتماعى والبيئة الطبيعية ، فمثلاً يمكننا أن نقول إن طابع التفكير فى القرون الوسطى فى أوربا كان شرقياً فى العموم لغلبة المنزع الشرقى على الطابع الغربى نتيجة لبلوغ المنزع الشرقي شغاف أوربا وغزوها الغرب مع الدين المسيحى

٢ — إن هـذا المنزع الثقافي والطابع الذهني لكل من الشرق والغرب إذا اعتبرناه . من الخصائص الأولية لشعوب الشرق والغرب، فذلك لا يرجع لعوامل بيولوجية أو انتروبولوجية كما حاول أن يثبتها بعض مفكري القرن التاسع عشر ، إنما هي ترجع لأسباب طارئة على المحيط الطبيعي والبيئة الاجتماعية فلهذا لا يرد علينا بما كتبه المناظر في الرد على غوبنيو

٣ — إن الفلسفة الاسلامية التي ظهرت على يد الفارابي وابن سينا وابن رشد وغيرهم من أعلام الفلسفة الاسلامية ليست شرقية الروح لأنها وليدة الفلسفة اليونانية والمنطق اليوناني . ويمكنك بكل سهولة أن تنزل بخطوط فلسفة فلاسفة الاسلام لأصولها عن أفلاطون وأرسطو وفلاسفة الاسكندرية من الأفلوطنيين ، فمن هنا لا يعترض علينا بأن هنالك من الفلاسفة الشرقيين من علقوا إرادة الخالق بسنن الوجود وقوانين الكون

كذلك لا يعترض علينا بالجانب العلمي من الثقافة الاسلامية لأنها نتيجة الأخذ بأساليب الفكر اليوناني

هذه أوليات ألفت إليها الأنظار حتى أكفي نفسي مقدماً الرد على ما سيثار حولها من رد وجدال

* * *

قد يكون من الأهمية في مكان أن أستطرد قليلاً هنا وأنقل بعض فقرات من الأستاذ الحكيم استشهد بها على صحة ما أرى من الفرق بين منزع الفكر الغربي وطابع الذهن الشرق

يقول الأستاذ توفيق الحكيم :

(إن الشرق قد حل معضلة وجود أغنياء وفقراء وسعداء وتعساء على هذه الأرض في يوم ما ، هذا لا ريب فيه . إن أبنياء الشرق قد فهموا أن المساواة لا يمكن أن تقوم على هذه الأرض وأنه ليس في مقدورهم تقسيم مملكة الأرض بين الأغنياء والفقراء فأدخلوا في القسمة مملكة السماء ، وجعلوا أساس التوزيع بين الناس الأرض والسماء معاً ، فمن حرم الحظ في جنة الدنيا فحقه محفوظ في جنة السماء. هذا جميل. ولو استمرت هذه المبادئ وبقيت هذه العقائد حتى اليوم لما غلى العالم كله في هذا الأتون المضطرم)

(إن مذاهب الغرب حينما نزلت الميدان تحاول إصلاح الحياة ألقت قنبلة المادية والبغضاء واللهفة والعجلة بين الناس . لقد أفهمت النـاس أنه ليس هنالك غير الأرض ، يوم أخرجت السماء من الحساب، ذلك أن علم الاقتصاد الحديث لا يعرف السماء . أما أنبياء الشرق فقد ألفوا زهرة الصبر والأمل في النفوس يوم قالوا للناس لا تتهالكوا على الأرض ، ليست الأرض كل شيء . إن هنالك شيئاً آخر غير الأرض يدخل في التوزيع)

وليس من شأني هنا أن أردّ على الأستاذ الحكيم آراءه وأقول له بأننا مادمنا في الحياة فيجب أن نعمل من أجلها ومن أجلها وحدها ... اعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً ، وإننا إذا لم نحل مشاكلنا على هذه الأرض فلن نحلها في وقت من الأوقات ولن تحل !

ليس هذا ما يعنيني ؛ أما الذي يعنيني من هذا الكلام أن أستوضح الفرق وأستبينه بين منطق الغرب الاتباثي وروح الشرق الغيبي بملاحظة أن المنطق الغربي ينظر للحياة الانسانية كما هي ، وعن طريق العقل وحده يحاول معرفة حقيقته وتنظيم الصلات بين أفراد المجموع البشري . بعكس الذهن الشرقي الذي يدخل عنصراً غيبياً في الحياة الانسانية ، وعن طريق هذا العنصر الغيبي يحاول تفسير الحياة وتنظيم الصلات الانسانية وإقامة العلاقات بين أفراد الهيئة الانسانية

ولنا أن نخلص من هذا كله بأن الثقافة الغربية إنسانية وأنها انتمت إلى المرحلة الأخيرة من مراحل التفكير الانساني الذي كشف عنه أوغست كونت ، بعكس الثقافة الشرقية التي وقفت عند حدود المرحلة الثانية حيث يمتزج فيها العالم المنظور بعالم ما وراء المنظور

وإذن من الخطأ التفريق بين مفهوم الثقافة ومفهوم العلم الوضعي باعتبار أن الثاني عام والأولى خاصة كما يريد أن يثبت مناظري الفاضل ، والصحيح أن يقال إن العلم الوضعي رغم أنه عام يقوم بمنهجه الثقافي ، وإن العلم يتلون (بروح الأمة) وهذا ما نلمسه نحن المشتغلين بمسائل العلم من قيام مدارس علمية في أمم متباينة الروح فتخرج متباينة المذاهب والطرائق والاتجاهات ؛ ولا أدل على ذلك مما نراه من مدارس في العلم، كلٌّ تحمل اسم أمة بعينها . مثال ذلك المدرسة الألمانية والمدرسة الفرنسية في الرياضيات والطبيعيات وبقية فروع العلم مما يعرفه كل من درس العلم في أوربا في جامعاتها الكبرى

* * *

إذا صح ما ذكرته كله ولا إخاله إلا صحيحاً — فمن العجيب أن يناقشنا الأستاذ فليكس فارس الرأى فيما قلناه من كون الثقافة الشرقية ذاتية بكلام يلقيه على عواهنه دون أن ينظر إلى ما قدمناه من أدلة استفاضت بها كلمتنا التى أدلينا بها فى مناظرتنا معه والتى شغلت أكثر من ثلاث صفحات من النص الذى نشرته (المجلة الجديدة) . ومع ذلك أحب أن أنظر فى كلام مناظرى الفاضل ، وأول شىء ألمسه أنه يعترف ضمناً بما نقول حيث كتب يقول :

(ومما يجدر ذكره هو أن العرب حين اقتبسوا من تراث اليونان ما يعززون به تفكيرهم العلمي لم تستهوهم الثقافة اليونانية ولا حضارتهم الأدبية إذ أحسوا ما بين الحضارة التى كانت تتمخض فى شعورهم وتقديرهم للحياة وبين حضارة اليونان الاجتماعية من مهاو سحيقة فأعرضوا عن شعرهم وموسيقاهم ونظم اجتماعهم لذلك لا تجد فى شعر العرب شيئاً من إبهام بندار وأوريبيد وهوميروس)

وأنت ترى مناظرنا يعترف بأن العرب لم يتقبلوا تراث اليونان الأدبى ، لوجود مهاو سحيقة بينهم وبين ثقافة اليونان التقليدية التى احتضنها روح اليونان ، وهذا ما نقوله ونشرحه بأن ثقافة العرب ذاتية وأن الثقافة موضوعية عند اليونان . ولهذا لن تجد فى الأدب العربى شعراً قصصياً ولا شعراً تمثيلياً ولا شعراً تصويرياً لأن القصص والتمثيل والتصوير يستلزم الانسحاب من آفاق الذات إلى رحاب الموضوعية ، وليس هذا فى مكنة الذهنية العربية كما شرحنا ذلك فى توطئة كتابنا « الزهاوى الشاعر » الذى صدر منذ عام وفي دراستنا الانجليزية لشعر الدكتور أبو شادى

* * *

يتساءل مناظرى بعد ذلك أين كانت العقلية الغربية قبل عصر النهضة — الرينسانس — أيام كانت الحضارة العربية تحتضن العلوم القديمة ، ويسبقنا بالجواب فيقول : إنهم كانوا يغطون فى نومهم ، ولم تزل تراود أحلامهم الآلهة التى خلقتها عقلية التعاون فيهم ، فبلغ عدد هؤلاء الآلهة ثمانية آلاف فى الأساطير . وأقول أنا رداً عليه : إنه لو قلب وجوه النظر في ما أدليت به فى مناظرتى ما يجده منشوراً بالمجلة الجديدة ، فانه ليجد الجواب موجوداً على ما أراده ، وإذا أراد أن ننقل له الكلام بحرفه نقلناه

قلنا هناك ما نصه :

« قامت المدنية الرومانية على تراث الاغريق ، غير أن المسيحية سرعان ما غزت روما وهبت عليها حاملة معها نزعات المنطق الأسيوى والروح الشرقية ، إلا أن الحضارة الرومانية ابتلعت المسيحية وامتصتها ومثلتها ، وكان فى هذا الابتلاع والامتصاص والتمثيل بعض الخلاص لمنطق الغرب من روح النسك الأسيوية ، ولو لم تكن المسيحية ديانة روحية صرفة قابلة للكثير من التفاسير مرنة بطبيعتها غير حاملة فى طياتها منطق حياة اجتماعية معينة ونظم وشرائع مخصوصة ، لقام النضال بين منطق الغرب وأصول مجتمعه وبين روح الشرق وشرائعه التى هبت بها على أوربا ... ولقد نضب معين مدينة روما لعوامل داخلية فهاجمها البربر من الجرمان والصقلب والسلاف والهون ، وسقطت إمبراطورية الرومان على ضفاف التبر ... فكانت عصور ظلام فى أوربا ؛ غير أن الشعوب البربرية التى ورثت إمبراطورية الرومان احتفظت بالكثير من نظم الرومان الادارية وعاداتهم ، ولم يعد ما أحدثه البرابرة فى أوربا سوى القضاء على التجارة الواسعة النطاق وعلى الادارة العامة ، وبذلك قامت بيوتات تجارية صغيرة تستطيع كفاية أهلها بمنتجاتها ، فكان ذلك مقدمة للعهد الاقطاعى . وهكذا قدر لهؤلاء البرابرة أن يركزوا الحياة الاقتصادية فى العمل الصغير ، وبذلك وضعوا النواة لعهد الانتاج الصناعى

ثم طغت موجة العرب على الغرب ... غير أن الغربيين نجحوا فى وقف الموجة العربية عند ما تفاقم أمرها ... وكان نجاح شارل مارتل على العرب على نهر اللوار كنجاح الاغريق على الفرس سبباً فى إنقاذ العقلية الغربية من طغيان روح النسك الأسيوية ... فى ذلك الوقت كانت العقلية الغربية رازحة تحت كاهل اللاهوت الكنسى الذى قام بروما رقيباً على النفوس والعقول محملاً بكل سيئات روح التنسك الأسيوية ... غير أن العقلية الجرمانية لم تر فى رقابة روما وتسلط البابا إلا روحاً أسيوية بعيدة عن طبيعة الذهن الغربى ، فعملت كل الجهد فى تقطيع أوصالها ، وبدأ عهد الإصلاح بالصراع بين الذهنية الجرمانية الخالصة ممثلة المثلية الأوربية وبين العقلية الباباوية التى تحمل فى طياتها شيئاً من روح النسك الأسيوية ... فى ذلك الوقت شق لوثر طريقه وكان عصر الاصلاح الدينى وعهد الاحياء الفكري »